في التربية الجنسية

الحياة الجنسية وأهمية الخبرات الطفلية عند فرويد

تقديم : مالكي محمد استاذ التربية وعلم النفس
تازة

سنحاول أن نتطرق الى النظرية الفرويدية الجنسية وأهمية الخبرات الطفلية مركزين ما أمكن على أهم ما جاءت به هذه النظرية . ويمكننا أن نقول ان الاكتشافات التي قدمها فرويد في هذا المجال تعتبر جديدة وذات أهمية بالنسبة للمكتشفات السابقة ، لقد حاول فرويد أن يلقي بعض الضوء على موضوع الجنس ، هذا الموضوع الشديد الحساسية نظرا لما يحيط به من أخلاق متزمتة ومعايير «دينية» صارمة ، والتي تقف كعائق أمام كل تحليل علمي وصريح لهذا المجال الشديد الاهمية بالنسبة للانسانية جمعاء ، فما هو الجديد الذي أتت به هذه النظرية ؟

لقد أعطى التحليل النفسي الفرويدي مفهوما جديدا للجنس وأبرز دور وأهمية الخبرات الطفلية في هذا المجال ، ومما تجب الاشارة اليه ان الآراء الجديدة التي قالها فرويد في هذا الصدد قوبلت بالرفض ، واثارت كثيرا من الاستغراب والاستنكار ، ويمكن أن نلخص ما جاء به فرويد في موضوع الجنس وأهمية الخبرات الطفلية الى ثلاث نقاط أساسية :

1) ان الحياة الجنسية لا تبدأ عند البلوغ ، بل تبتدىء عقب الميلاد مباشرة ولها مظاهر واضحة في حياة الطفل ومن تم يجوز لنا الحديث عن الجنسية الطفلية .

2) يجب علينا أن نميز تميزا قاطعا بين مفهومي «الجنسي» و «التناسلي» فالاول هو مفهوم أعم ويضم أنواعا عديدة من مظاهر النشاط ولكن لا شأن له بالاعضاء التناسلية، أما الثاني فوظيفته الانجاب ويتصل مباشرة بالاعضاء التناسلية .

3) تتضمن الحياة الجنسية الحصول على اللذة من مناطق جسمية مختلفة لاتنحصر فقط في الاعضاء التناسلية بل تشمل الجسم كله .

لقد تحدث فرويد بكل صراحة عن الحياة الجنسية للاطفال ، وأبرز أن هذه الحياة تمر عبر مراحل معينة من تطور ونمو الطفل لكن هذا الرأي أثار ضجة قوية وقوبل بسخط ورفض من قبل معاصريه ، ولكن رغم هذه المعارضة الشديدة فاننا نجد أن اراءه حول الجنسية الطفلية قد انتشرت انتشارا مذهلا وفي أقل من نصف قرن ، ويدل على هذا الانتشار ظهور كثير من مؤلفات فرويد ، وتشير «كاترين اكليمت» في كتاب «التحليل النفسي» الى هذا الانتشار اذ نجدها تقول :

«اذا كان التحيل النفسي قد احدث ضجة قوية في العالم أبان ظهوره فاننا نجد أن آراءه «حول هذا الموضوع» قد انتشرت انتشارا مذهلا وفي أقل من نصف قرن ويدل على هذا الانتشار ظهور كثير من مؤلفات فرويد» .

يوضح فرويد أن كشوفه المستغربة في الجنسية لدى الاطفال توصل اليها ، في بادىء الامر عن طريق دراسته وتحليله للراشدين وتمكن فيما بعد من التحقق من تلك النتائج التي توصل اليها ، وذلك من خلال ملاحظته المباشرة لحياة الاطفال ، وانه من السهل ـ كما يقول فرويد ـ على الفرد أن يقتنع ويؤمن ويصدق بوجود نشاط جنسي لدى الاطفال ثم لابد للمرء أن يطرح سؤالا على نفسه لايكاد يخلو هذا السؤال من أهمية : **كيف استطاع الجنس البشري ان ينجح في اغفال واعتناق**

تلك الاسطورة التي تقول بأنه لا وجود لحياة جنسية طفلية طوال ذلك الزمن ؟ هذا الامر العجيب راجع الى النسيان الذي يخفي عن معظم الراشدين طفولتهم ، تلك المرحلة من العمر التي نجدها حافلة بمظاهر وسلوكات جنسيـة لايجوز للمرء انكارهـا واغفالها . لهذا يؤكد فرويد على ضرورة بل ودراسة هذه المرحلة من عمر الانسان دراسة جادة ، وكفيلة بأن تكشـف عـن تلك المظاهر الجنسية التي تؤثر بشكل مباشر أو غيـر مباشر في حياة كل انسان .

يقول مارت روبرت في كتابه «ثورة في التحليل النفسي» ما يلي : «لقد حاول فرويد أن يعرف لماذا لانعطي اهتماما وعناية لمشكلة الجنسية الطفلية ، هذا المشكل الذي أصبح بصورة عامة غير مدروس ، والذى لايمكن تجاهله أو انكاره بسهولة : ان الاغلبية الساحقة من الناس ينسون وبصـورة قطعية طفولتهم الاولـى ، وينسون كذلك ما يصاحب هذه الطفولة من اضطرابات حادة ، هذه الاضطرابات التي تؤثر في تكوين شخصيتهم المستقبلية» .

ان ذكريات الطفولة في هذه الفترة الاولى مـن حياة الانسان تؤثر في نمو الفرد تأثيرا بالغا ، وقد تؤدي الى بعض الاضطرابات العصابية ، أو بعض الصراعات النفسية الحادة . وأن خبرات هذه المرحلـة تتعلـق أساسا وفي رأي فرويد طبعا ــ بالاستثارات الجنسية . ان هذه الاستثارات الجنسية دفعت بفرويد الى الحديث عن مظاهر هذه الجنسية الطفلية ، اذ يرى أن الناس كانوا ينظرون الى الطفولة على أنها مرحلة بريئة وخاليـة من شهوات الجنس ولم يكن يتبادر الى الاذهان ان الصراع ضد «شيطان اللذة الجنسية» يبدأ قبل البلوغ وما كان يظهر من سلوك الاطفال أحيانا من أفعال جنسية كان يستحيل تجاهلها أو نكرانها ، لقد كانت تعتبر هذه السلوكات «انحرافات جنسية وانحلالا خلقيا» يجب معاقبة الطفل عليه أو يجب تربيته واصلاحه .

ان الجنسية الطفلية في نظر فرويد تمر بمراحل معينة ، لكل مرحلة خصائصها ومميزاتها ويقول فرويد مشيرا الى أهم تلك المراحل مايلي : «لابد لهـا (أي الوظيفة الجنسية) أن تمر خلال عملية نمو طويلة معقدة قد تصير الى ما نعرفه لدى الراشدين من حياة جنسية سوية ، فهي تظهر أول ما تظهر نشاطا لمجموعة بأسرها من المركبات الغريزية . . فهي غير مركزة وتغلـب عليها الشهوانية الذاتية ثم تشرع بعد ذلك في التآلف فتبلغ أول مرحلة التنظيم تحـت سيطـرة المركبات الفمية ويعقب ذلك مرحلة سادية شرجية ولا تأخـذ الاعضاء التناسلية المقام الاول وتبدأ الجنسية تخـدم أغراض النسل الا بعد بلوغ المرحلة الثالثة» .

نستنتج من هذا النص أن النمو الجنسي يعبر مرحلتين تفصلهما مرحلة من الكمون لايتم خلالها من الناحية العملية أي نمو ، وحسب ما يرى فرويد يكون المستوى الاول أكثر أهمية لانه يرسم الملامح التي تحدد كيفية اعادة تنشيط الدوافع الجنسية في المستقبل .

فمن بين مظاهر هذه الجنسية الطفليـة شوقـه للملاطفات والسعادة التي تغمره عندما تحتضنه الادرع ، وسروره عندما يمص أبهامه وغضبه عندما نشده منه ، واللذة التي يلمسها عندما يدغدغ كل هذه المظاهر من السلوك علامات واضحة على وجود جنسيـة طفليـة مبكرة .

هذه أهم مظاهر الحياة الجنسية الطفلية وفي ختام هذا المقال نود أن نطرح السؤال التالي : الى أي حد يمكن أن نعتبر افكار فرويد حول هـذا الموضـوع صحيحة ؟ وهل فعلا تعبر بصدق عن الحياة الجنسية لدى الاطفال بل هل هناك وجود فعلي للحياة الجنسية الطفلية بمعناها المتميـز ؟

المرجـع : «المعالم الاجتماعية في التحليـل النفسـي» فـرويـد .

كلمـة شكـر

بلغنا والمجلة بصدد الطبع أن مجموعة كبيـرة من المربين بالرباط ، اشتركت في المجلة ، تشجيعا ، لهذا المشروع التربوي ، وهيئة التحرير ، وهي تواجه آخر متاعب اصدار هذا العدد ، تتقـدم لهـم بأحـر تشكراتها ، وتعدهم أنها لن تألو جهدا من أجل خدمة التربية .